موقف عبد الله بن الزبعرى من الدعوة الإسلامية

قيم موضوعية وفنية

د. محمد السيد سلامة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الموقف الشعرى: هو درجة حساسية الشاعر تجاه الأشياء وهذه الحساسية تنبع من فهم دقيق لمرامى الشعر، وإدراك كامل لأبعاده الفنية المختلفة، ولن يتأتى للشاعر فهم هذه الأبعاد إلا إذا نجح فى المواءمة بين قربه من الواقع وبعده عنه فى آن واحد.

والمقصود بالبعد ـ هنا ـ البعد الفنى، الذى يمكن الشاعر من بقائه حراً طليقًا، لا يخضع لأى مؤثر من المؤثرات، التى يفرضها عليه الواقع ـ أحيانًا ـ، كما أنه يتيح له مجالاً أوسع وأعمق.

إن صياغة الواقع صياغة فنية، أمر لا يتوافر إلا للمبدعين الذين امتلكوا ناصية الفن، وبرزت عندهم قدرات خاصة تقبض على روح التجارب الفنية بقوة واقتدار.

والشاعر عبد الله بن الزبعرى من ثلة الشعراء الذين قدر لهم أن يحيوا فى ظروف خاصة، وأن يكون لأشعاره مذاق خاص، نظراً لدقة الموقف الذى انبثق من حناياه.

لقد تناول الشاعر الموقف بين الكفر والإسلام شعراً تخطى حدود الشعر بصفته حالة إبداعية تصور حقيقة الوجدان الإنسانى تجاه الأحداث، وتخطى ـ أيضًا ـ مجرد الانفعال البسيط الضيق، فصار موقفًا فكريًا ونفسيًا وشعوريًا يحمل بين طياته رؤيا شعرية استشرفت خطورة الوضع الذى يحيا فى ظلاله، ومعه قبيلته.

إن تجربة هذا الشاعر ـ على الرغم من قلة أشعاره ـ تحمل عدة مفاهيم شعرية أهمها على الإطلاق: مفهوم الحرية.

وهو مفهوم عبّر عنه الشاعر فى موقفه من الدعوة الإسلامية عندما رفض التفاعل معها، وناصبها العداء، كما عبر عنه عندما أعلن إسلامه دون أية ممارسات أو ضغوط وقعت عليه.

كما عبّر عنه أيضًا عندما خط ـ على باب «دار الندوة» ـ خطوطًا على هيئة أشعار، تهجو بنى قصى، وتسمهم بالرشوة والدناءة، هذا كله على الرغم من مكانة قصى وسيادتها فى أرض الجزيرة العربية.

هذه المواقف تشير إلى أننا بإزاء شاعر مارس معنى الحرية فى زمن متقدم نسبيًا، ويقدر للذات الإنسانية متطلباتها النفسية والروحية.

- ٢ -

لقد بدأت علاقتى بالشاعر منذ فترة طويلة، عندما كنت أطالع أشعاره مبثوثة فى ثنايا أمهات الكتب العربية، فخامرنى إحساس بالتعلق به وبأشعاره، وقوى من عزيمتى فى الرغبة على دراسة شعره، عندما وجدت معظم شعره قد جمعه أحد الأساتذة الأجِلاء[1].

فعكفت على قراءته، وكلما أمعنت فى القراءة كلما ازدادات صعوبة التعرف عليه، وازدادت بالتالى الرغبة فى التغلب على هذه الصعوبات.

وبعون الله وتوفيقه قمت بعمل هذه الدراسة التى اخترت لها عنوان

(١) عبد الله بن الزبعرى: حياته وشعره د/ يحيى الجبورى، مجلة معهد المخطوطات العربية، إحدى إصدارات المنظمة العربية للفنون والثقافة والعلوم، التابعة لجامعة الدول العربية.

«موقف عبد الله بن الزبعرى من الدعوة الإسلامية»، وفى هذا الموقف تكشفت الروح العدائية لابن الزبعرى والتى تشبعت بعصبية قبلية أخلص الشاعر لها ونافح عنها فتخطى هذا العداء حيز الشعر إلى الممارسة والسلوك فألّب عليه ولجّ فى الخصومة، بل إنه قاتل المسلمين، وقَتل منهم عبد الله بن سلمة، وطعن فى القرآن الكريم، وأشار المفسرون إلى أن الآية الكريمة التى وردت فى سورة الزخرف تصور الخصام بين المسلمين والكافرين نزلت لترد على ابن الزبعرى، يقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(١).

إسلام الشاعر، وفى ثنايا البحث عن حقيقة إسلامه، أوضحت أن الشاعر لم يسلم عنوة أو كراهية وإنما أتى إسلامه متساوقًا مع الخصائص النفسية والروحية والسلوكية التى عليها ابن الزبعرى فتفيض قريحته بأشعار قوية صادقة فى الرسول ﷺ وفى دعوته الطاهرة.

وأخيراً أرجو من الله العلى القدير أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه وهو الكشف عن جانب من جوانب شاعر تعددت قدراته لكنه لم يلق العناية والاهتمام من الدارسين، آمل أن أكون قد اقتربت منه ومن بعض أشعاره..

والله ولى التوفيق..

د/محمد السيد سلامة

---

(١)سورة الزخرف: آية : ٥٧، ٥٨.

التعريف بالشاعر

نسبه: عبد الله بن الزبعرى، شاعر مكة فى الجاهلية وصدر الإسلام وأخطر الشعراء العرب على الدعوة المحمدية قبل أن يسلم، قاتل بلسانه وسنانه، وسعى ضد الإسلام.

ينتمى الشاعر إلى بنى سهم، فهو: عبد الله بن الزبعرى بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم [1] القرشى السهمى الشاعر [2].

أمه: هى عاتكة بنت عبد الله بن عمير بن أهيب بن جمح [3] ويطلق عليها: عاتكة الجمحية [4].

وينسب البعض ابن الزبعرى إلى بنى كعب [5]، ويكنى بـ «أبو سعد» [6].

والزبعرى: هو الشكس السيئ الخلق، أو هو الضخم، أو هو الكثير شعر الوجه والحاجبين واللحيين [7].

---

(١) نسب قريش : ص ٤٠٢ للزبيرى . صححه وعلق عليه إ. ليفى بروفنسال، ط٣ ـ ١٩٨٢، دار المعارف.

(٢) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب: جـ٣، ص ٩٠١ لابن عبد البر، تحقيق: محمد على البجاوى، ط٣، دار الجيل بيروت ١٩٩٣م.

(٣) المرجع السابق، الجزء نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) أسد الغابة: جـ٣، ص١٦٠ لعز الدين بن الأثر، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور ، محمود عبد الوهاب فايد .

(٥) معجم الشعراء فى لسان العرب :ص٢٦٣، د/ ياسين الأيوبى . دار العلم للملايين ط٢/ ١٩٨٢م.

(٦) القاموس الإسلامى : (ابن الزبعرى)، المجلد الثالث، وضع أحمد عطية الله، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م.

(٧) لسان العرب: مادة (زبعر).

المبحث الثالث

موقف ابن الزبعرى من الدعوة الإسلامية

تجلى خطر هذا الشاعر فى موقفه من الدعوة الإسلامية ـ قبل إسلامه ـ فتعصب للشرك والمشركين، وزاد عن الكفر بعزيمة صلبة انعكست على الإسلام والمسلمين، فعندما نزل الإسلام أرض الجزيرة العربية، وعرف خطر هذا الدين، والذى يتمثل فى ذهاب هيبة قريش وإتيانه بمبادئ جديدة لا تتفق مع المبادئ الجاهلية التى ينافح عنها ابن الزبعرى، أدرك الشاعر قيمة وأهمية هذا الدين، وبعد أن وضحت حقيقة هذا الدين الجديد للشاعر ناصبه العداء، وأخذ هذا العداء صنوفا وأشكالا متعددة كانت على النحو التالى :

أولا: الشعر:

اكتسب ابن الزبعرى أهميته من أشعاره التى جاء بها الرسول ﷺ ونص كثير من النقاد على ذهاب كثير من الشعر بسبب ضياعها أو بسبب تحرج الرواة من ذكر الأشعار التى فيها تطاول على الرسول ﷺ وأصحابه .

ولم يتبق إلا شعره الذى صاغه إبان الحروب التى دارت بين المسلمين وقريش، وهو شعر ينم عن موقف عدائى للإسلام ورسوله ويحمل روح البغض والكراهية لهذا الدين الجديد، ويكشف عن حقيقة مشاعر قريش ضد الرسول ﷺ .

لقد تناول ابن الزبعرى هذه الحروب تناولا تخطى حدود الشعر

بصفته حالة إبداعية تصور حقيقة الوجدان الإنسانى تجاه الأحداث، وتخطى أيضا مجرد الانفعال البسيط الضيق، فصار موقفا فكريا ونفسيا وشعوريا، يحمل بين طياته رؤيا شعرية استشرفت خطورة الوضع الذى تعيشه قريش، ويحيا فى ظلاله الشاعر.

ولم يكن الشاعر أداة رصد دقيقة تؤرخ للحدث، وإنما كان مقاتلا داخل الصفوف - بأشعاره - التى تصور ما ينطوى عليه شعوره، وفى غزوة بدر التى انتصر فيها المسلمون على الكفار يحزن الشاعر وكان حزنه أليما شديدا، فقد أوقع محمد وأصحابه بقريش ورجالاتها، تأمل هذه الأبيات، ولاحظ العاطفة المكلومة التى يئن تحتها الشاعر، يقول ابن الزبعرى [1]:

ماذا على بدر وماذا حوله ... من فتية بيض الوجوه كرام

تركوا نبيها خلفهم ومنبها ... وابنى ربيعة خير خصم فثام [2]

إنه يرثى صناديد الشرك والمشركين، ويبكى رؤوس قريش التى اجتثت يوم بدر، فيذكر مناقبهم وصفاتهم الكريمة التى كانوا يتمتعون بها.

وفى غزوة أحد تتهلل أساريره، ويتغنى بانتصار المشركين ويشير إلى قوة قومه، وشدة بأسهم، ويبدى حسرته وندمه على عدم ظفره

---

(١) عبد الله بن الزبعرى: حياته وشعره صـ ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) نبيه: هو نبيه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم، قتله حمزة بن عبد المطلب وسعد بن أبى وقاص، اشتركا فيه. ومنبه: أخو نبيه. ابنى ربيعة هما عتبة وشيبة، قتلا يوم بدر على يد الحارث بن عبد المطلب، وحمزة بن عبد المطلب. الفثام: الجماعة

بالرسول ﷺ حتى يشفى نفسه المغيظة، ويصور حمزة بن عبد المطلب وقد أضرج بدمائه، وأثخنته جراحه، وناء وصدره ممزق بالسهام والرماح، ويقول الشاعر[1]:

ولولا علو الشعب غادرن أحمدا ولكن علا والسمهرى شروع
كما غادرت فى الكر حمزة ثاويا وفى صدره ماضى الشباة وقيع[2]
بأحد وأرماح الكماة يردنهم كما غال أشطان الدلاء نزوع[3]

فروح التشفى والغيظ المحنق تلوح من بين المعانى؛ لأن الشاعر أحس يوم بدر بالذلة والهوان، وتسلل إلى قلبه إحساس بأن سلطان نفوذ الشرك والمشركين قد بدأ يتهاوى، بعدما دك الرسول ﷺ حصونهم دكا، فهو يثأر فى يوم أحد ليوم بدر.

وتتجدد أشعاره بتجدد الغزوات، ففى غزوة الخندق، يتعرض لجيوش الشرك والمشركين، وهم يسيرون من مكة إلى المدينة يحدوهم أمل كبير فى الانتصار على المسلمين، ويصور ما أعدوه لهم من عدة وعتاد، ويذكر أسماء القواد الذين كانوا على رأس الجيش فيذكر عيينة ابن حصي الفزارى، وأبو سفيان صخر بن حرب، وما يتمتعان به من القوة والسيادة والرفعة، يقول ابن الزبعرى[4]:

جيش عيينة قاصد بلوائه فيه وصخر قائد الأحزاب

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ صـ٧٣.
(٢) الشباة: حد السيف.
(٣) الأشطان: الحبال . النزوع: جذب الدلو من البئر.
(٤)عبد الله بن الزبعرى، حياته وشعره: صـ ٦٦.

قرمان كالبدرين أصبح فيهما غيث الفقير ومعقل الهراب

فالشاعر يفتخر بقوة الجيش، ويمدح القادة الأمراء عليه، وهى قوة لم تنجح فى قهر المسلمين بسبب الخندق الذى حفره المسلمون على حدود يثرب.

هذه الأشعار المختلفة تشير إلى حقيقة موقف الشاعر، وحبه وولائه لقريش، وعداوته للإسلام والمسلمين.

ثانيا: القتال ضد المسلمين:

لم يقف ابن الزبعرى على التأييد المعنوى المتمثل فى الأشعار التى قالها فى جميع الغزوات، وإنما اتشح سيفه، ولبس لأمته، وألقى بنفسه فى أرض المعركة، فاشترك فى الغزوات كلها، ونجح يوم أحد فى قتل نفر من المسلمين، يذكر الواقدى تحت عنوان (ذكر من قتل بأحد من المسلمين) أن الشاعر قتل عبد الله بن سلمة، يقول: (ومن بنى العجلان: عبد الله بن سلمة، قتله عبد الله بن الزبعرى)[1].

وهذا الموقف يكشف عن شدة تعصب الشاعر ووقوفه ضد الإسلام والمسلمين.

ثالثا: التحريض على عدم الدخول فى الإسلام:

ويبرز هذا الموقف عندما أسلم خالد بن الوليد، وعثمان بن أبى طلحة فتطل فى هذا الموقف روح العصبية القبلية، حيث اتكأ الشاعر

(١) المغازى :جـ ١ صـ٣٠٢ للواقدى تحقيق د/ مارسدن جونس ، مطبعة جامعة إكسفورد لندن ١٩٦٦م.

فى مناشدته لخالد، وعثمان ألا يسلما على أساس العلاقة التى كانت تربط بينه وبينهما، وهى الأحلاف القبلية.

فقد كان خالد وعثمان ينضويان تحت القبائل التى انضمت إلى سهم فى حلف سمى«بالأحلاف»، ولقد توهم الشاعر أن هذا الحلف يعد سببا فى منعهم من دخول الإسلام، يقول الشاعر[1]:

أناشد عثمان بن طلحة حلفنا ... وملقى نعال القوم عند المقبل

أمفتاح بيت غير بيتك تبتغى ... فباب الذى تبغى من الأمر مقفل

وما عقد الآباء من كل حلفة ... وما خالد عن مثلها بمحلل

لا تأمنن خالدا بعد هذه ... وعثمان جاء بالدهيم المعضل[2]

فالشاعر يعد إسلامهما خرقا لميثاق الحلف الذى يجمع بينهم ويناشدهم بحق هذا الحلف أن يعودوا إلى دين آبائهم، وينكر عليهم من خلال الاستعارة التمثيلية تبديل هذا الدين، وجعله بمثابة تغيير البيت ويصف إسلامهم بالمعضلة، ويحرض قريشا على معاداتهم، وعدم الأمان لهم.

رابعا: السعى ضد الإسلام:

وتجاوز تحريض الشاعر مجرد النداء بالشعر، إلى السعى على رجليه والذهاب إلى بعض القبائل ليؤلبها ضد الإسلام والمسلمين.

---

(١) المنمق صـ ٥١.

(٢) الدهيم: من أسماء الداهية، المعضل: الشديد.

فبعد غزوة بدر كان ابن الزبعرى أحد أربعة بعثت بهم قريش ليحرضوا القبائل العربية ضد الدين الجديد، والأربعة هم عمرو بن العاص وهبيرة بن أبى وهب، وابن الزبعرى، وأبو عزة الجمحى، وهؤلاء الأربعة كانوا يطوفون بين القبائل، ونجحوا فى هذه المهمة إلى حد بعيد، وخرج الأربعة، بعد أن رفض أبو عزة بسبب موقف الرسول ﷺ منه يوم بدر، يقول الواقدى:«فأطاع نفر، وأبى أبو عزة أن يسير، وقال: «منّ على محمد يوم بدر ولم يمن على غيرى، وحلفت لا أظاهرعليه عدوا أبدا»، فمشى إليه صفوان بن أمية، فقال: اخرج، فأبى، فقال: عاهدت محمدا يوم بدر لا أظاهر عليه عدوا أبدا، وأنا أفى له بما عاهدته عليه، من على، ولم يمنّ على غيرى حتى قتله أو أخذ منه الفداء.

فقال صفوان: اخرج معنا، فإن تسلم أعطك من المال ما شئت وإن تقتل كان عيالك مع عيالى، فأبى أبو عزة حتى كان الغد وانصرف عنه صفوان بن أمية آيسا منه، فلما كان الغد، جاءه صفوان وجبير بن مطعم، فقال له صفوان الكلام الأول، فأبى.

فقال جبير: ما كنت أظن أنى أعيش حتى يمشى إليك أبو وهب فى أمر تأبى عليه، فاحفظه، فقال: أنا أخرج.

قال: فخرج فى العرب يجمعها، وهو يقول:

يا بنى عبد مناة الرزام أنتم حماة وأبوكم حام

لا تسلمونى لا يحل إسلام لا تعدونى نصركم بعد العام

قال: وخرج معه النفر، فألبو العرب وجمعوها)[1].

ورفض أبى عزة الخروج مع الثلاثة الآخرين مبدئيا، يوضح تخوفه من نقضه للعهد الذى قطعه على نفسه للرسول ﷺ بعدم العودة إلى محاربته، ولكن تحت تأثير موقف قريش منه، وضغطهم عليه خرج ليشارك ابن الزبعرى وعمرو بن العاص وهبيرة بن أبى وهب فى رحلتهم للقبائل العربية والتى سعوا فيها إلى منع الآخرين من دخول الإسلام.

خامسا: الطعن فى القرآن الكريم:

عرف التاريخ كثيرا من الشخصيات التى حاولت أن تصرف الناس عن تأمل معانى القرآن الكريم، وبالتالى صرفهم عن الإسلام، ومن هؤلاء النضر بن الحارث، الذى أنزل الله فيه قرآنا، يفضحه ويكشف غايته الدنيئة، يقول الله ـ عز وجل ـ ﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين﴾[2] ويذكر النيسابورى فى هذه الآية: «نزلت فى النضر بن الحارث، وكان يتجر إلى فارس فيشترى كتب الأعاجم فيحدث بها قريشا، وقيل كان يشترى المغنيات، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول أطعميه واسقيه وغنيه، ويقول: هذا خير مما

---

(١) المغازى: جـ ١، صـ ٢٠١ ، ٢٠٢ للواقدى.
(٢) سورة لقمان: آية ٦.

يدعوك محمد إليه من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه»[1].

وكانت هناك علاقة ود متبادلة بين النضر وبين ابن الزبعرى وهذه العلاقة جمعت بينهما فى دفع الناس عن الإسلام ولقد لاحظ هذه العلاقة الوليد بن المغيرة الذى كان يجلس مع الرسول ﷺ فى المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم فى المجلس، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، كما يذكر ابن إسحاق، ويستطرد: «فتكلم رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون. لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لايسمعون﴾[2]، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم»[3]

وهذه القصة توحى بأهمية ابن الزبعرى وخطره ومكانته فى المجتمع الجاهلى، وعظم الدور الذى كان يقوم به لمجابهة الدعوة الإسلامية؛ لأنه لما حضر مجلس النضر والوليد وأخبراه بكلام الرسول ﷺ تحسر لعدم وجوده أثناء هذا الكلام، يقول ابن إسحاق «فقال عبد الله بن الزبعرى، أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمدا أكل ما يعبد من

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: المجلد العاشر للنيسابورى، دار الجيل بيروت.
(٢) السيرة النبوية جـ ٢ ص ٨. والآيات من سورة الأنبياء: الآيات:٩٨-١٠٠.
(٣) السيرة النبوية: جـ٢، صـ ٨.

دون الله فى جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ.

فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم[1].

وهذه المحاجة تكشف عن دراية ابن الزبعرى بالأديان السماوية السابقة فيذكر اليهودية، والنصرانية، ويذكر عزيرا والمسيح.

ولكنها فى الوقت نفسه تكشف عن ضيق أفقه فى عدم فهمه لمرامى الآيات القرآنية، ولقد رد الرسولﷺ عليه فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبد؛ إنهم يعبدون الشيطاين، ومن أمرتهم بعبادته»، فأنزل الله ـ تعالى ـ فى ذلك: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ أى عيسى ابن مريم وعزيرا ومن عبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله، ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة، وأنها بنات الله: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون* لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون* ومن يقل منهم إنى إله من دونه نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين﴾[2].

---

(١) السيرة النبوية: جـ٢، صـ ٨.

(٢) المصدر نفسه، والصفحة نفسها، والآيات من سورة الأنبياء: آيات: ٢٦ ـ ٢٩.

ولقد رد الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ابن الزبعرى فى الآية الكريمة ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون * وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون﴾ [1] يقول الزمخشرى معقبا على هذه الآيات: «ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه (إذا قومك) من قريش (يصدون) ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وجذلا وضحكا بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ بجدله كما يرتفع لغط القوم وجلبهم إذا تعبوا»[2]. ويرى ابن كثير أن مضمون الكلام فى قول الله ـ عزوجل ـ : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ يراد به التقريع والتوبيخ، فيقول عن كلام ابن الزبعرى: «وهذا الذى قال ابن الزبعرى خطأ كبير لأن الآية إنما نزلت خطابا؛ لأهل مكة فى عبادتهم الأصنام التى هى جماد لا تعقل ليكون ذلك تقريعا وتوبيخا لعابديها، ولهذا قال: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده»[3].

وهذه الردود المتنوعة من القرآن الكريم والرسول وبعض المفسرين توحى بمدى اللغط والجدال والخصام الذى أحدثه ابن الزبعرى، مما يكشف عن أهمية موقفه وشدة تعنته ضد الإسلام والمسلمين.

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٥٧، ٥٨.

(٢) الكشاف: جـ ٣، صـ ٨٢ ـ ٨٣ ط ٢، المطبعة الأميرية.

(٣) تفسير القرآن لابن كثير: جـ ٣، صـ ٩٩، دار المعرفة ـ بيروت ١٩٨٠م.

وتكشف أيضا عن أن ابن الزبعرى قد استخدم كل الأدوات المتاحة من أشعار ونزال بالسيوف، وتحريض وسعى ضد الإسلام وتناول للقرآن الكريم بالطعن، وجدال للرسول ﷺ .

إن هذه الوسائل المتعددة التى حارب بها ابن الزبعرى الإسلام والمسلمين توضح إلى أى حد وصل عنف الشاعر وتشدده ضد الدعوة الجديدة، والتى اعتبرها الشاعر تقويضا لمكانة قريش، وهدما لنظام قبلى يحبه الشاعر ويعتنقه.

المبحث الرابع

إسلام عبد الله بن الزبعرى ....وتوبته

بعد أن من الله على المسلمين بفتح مكة، وقويت شوكة الإسلام وعاد الرسول ﷺ إلى مكة مظفرا بعد أن تركها مكرها، تأكد لكفار قريش نصر الإسلام والمسلمين، ووضح لهم صدق عقيدتهم وشدة تمسكهم بدينهم، وأيقنوا أن الإسلام ـ لابد ـ سيسود أرض الحجاز كلها، فكان ـ لزاما ـ عليهم أن يراجعوا موقفهم، فمنهم من أسلم مثل أبى سفيان بن حرب، ومنهم من هرب.

والذين هربوا يوم الفتح ثمانية هم: (عكرمة بن أبى جهل، وصفوان ابن أمية بن خلف، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح من بنى عامر بن لؤى، وعبد الله بن خطل، والحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد قصى، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن الزبعرى، ووحشى بن حرب قاتل حمزة)[1].

وهرب هبيرة بن وهب وعبد الله بن الزبعرى إلى نجران باليمن، وهناك لجآ إلى حصن نجران، بعد ما أوغرا صدور أهل نجران على محمد وأصحابه، وخوفوهم من قدومهم عليهم، وعلى أثر ذلك قام أهل نجران بإصلاح الحصن، وجمعوا فيه كل أموالهم، يقول الواقدى عن هبيرة وابن الزبعرى :«فلم يأمنا حتى دخلا حصن نجران، فقيل لهما: ما وراءكما؟ قالا: أما قريش فقد قتلت، ودخل محمد مكة،

---

(١) الكامل لابن الأثير: جـ ٢، صـ ٢٤٨: ٢٥٠ .

ونحن والله نرى أن محمدا سائر إلى حصنكم هذا.

فجعلت بلحارث وكعب يصلحون ما رث من حصنهم، وجمعوا ماشيتهم»[1].

وأثناء وجود ابن الزبعرى فى حصن نجران (رماه حسان بن ثابت ببيت ما زاده عليه [2].

لا تعدمن رجلا أحلك بغضه نجران فى عيش أجد أثيم

وعندما تنامى إلى سمع ابن الزبعرى بيت حسان أراد الخروج من نجران؛لأنه أدرك أن الأرض قد ضاقت عليه، وتوصل إلى الأمر الذى سيخلصه من الهم والقلق، فعقد النية على العودة إلى مكة، وأحس هبيرة بما يضمره ابن الزبعرى، فقال له: «أين تريد يا ابن عم»؟

فقال: أردت والله محمدا. قال: أتريد أن تتبعه؟

قال: إى والله ! قال:يقول هبيرة: يليت أنى رافقت غيرك! والله ما ظننت أنك تتبع محمدا أبدا!

قال ابن الزبعرى: هو ذاك، فعلى أى شىء تقيم مع بنى الحارث بن كعب وأترك ابن عمى وخير الناس وأبرهم، ومع قومى وداري) [3].

وهذه الكلمات التى يصف بها ابن الزبعرى رسول الله ﷺ استقاها من موقفه مع أهل مكة يوم الفتح، يوم أن تناسى إساءتهم، وقدم لهم

(١) المغازى: جـ ٣، صـ ٨٤٧.

(٢) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب: جـ ٣، ص ٩٠٢ لأبى عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر.

(٣) المغازى :جـ ٣، صـ ٨٤٧، ٨٤٨.

كل حب وخير وصفح، وضرب لهم أروع الأمثلة فى العفو والتسامح.

لقد اكتشف ابن الزبعرى فى الرسول معانى لم يكن يألفها فى مجتمع الشرك والضلال، وبهره من الرسول مقابلته السيئة بالإحسان.

وهنا يجدر بنا أن نتساءل: هل كان إسلامه طواعية أم كرها؟

والإجابة عندى أنها كانت طواعية؛لأن الكراهية لا تتسق مع الصفات الشخصية له، فهو ذو شخصية معاندة، تبلغ شأوا بعيدا فى الاعتداد بالنفس، فلم يرهبه وعيد الرسول ﷺ يوم أن أهدر دمه، هو وأصحابه الذين وقفوا من الإسلام موقف العداء.

ومما يدل على أن إسلامه كان عن قناعة شخصية، أن رسول الله ﷺ قد لمح فى وجهه سيماء الإسلام ونوره، يقول البلاذزى: «فلما رآه الرسول ﷺ قال: قد جاءكم عبد الله، وإنما أرى فى وجهه نور الإسلام»[1] وهذا يدل على تبدل طبيعة ابن الزبعرى الداخلية والخارجية وتهيئة النفس للمرحلة الجديدة، أعنى مرحلة دخول الإسلام.

ولعل حواره مع الرسول ﷺ أثناء إعلانه إسلامه يكشف عن هذا التهيؤ والتحول الداخلى الذى أحس به قلبه، وفيه - من ناحية أخرى - كشف عن جوانب نفسية خاصة تساعد فى التعرف على ملامح شخصية الشاعر، تحكى المصادر أنه لما دخل على الرسول قال له:

---

(١) أنساب الأشراف :جـ ١ ،صـ ٣٦٢ لأحمد بن يحيى المعروف بالبلاذرى ، تحقيق: الدكتور محمد حميد الله - معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف سنة ١٩٥٩م.

«لسلام عليكم ـ أى رسول الله ـ، شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله، والحمد لله الذى هدانى للإسلام، لقد عاديتك، وأجلبت عليك، وركبت الفرس والبعير، ومشيت على قدمى فى عداوتك، ثم هربت منك إلى نجران. وأنا أريد الأ أقرب الإسلام أبدا، ثم أراد بى الله ـ عز وجل ـ منه بخير، فألقاه في قلبى وحببه إلى، وذكرت ما كنت فيه من الضلالة واتباع ما لا ينفع ذا عقل من حجر يعبد ويذبح له لا يدرى من عبده ومن لا يعبده) [1].

وهذا الحوار يبلور قصة الشاعر مع الإسلام، وصراعه مع المسلمين، فيوضح معاداته لهم وللرسول ﷺ، وإيذائه لهما، وقصة هروبه إلى نجران، وإصراره على رفض الإسلام، ولكن هداية الله تمس قلب الشاعر فيتحول من النقيض إلى النقيض من ظلام الضلالة والجهالة إلى نور الإسلام والهداية، فأتى بقلب مفتوح، ونفس راضية مطمئنة، يعلنها صريحة على رؤوس الملأ والأشهاد، ويطمئنه الرسول ﷺ، بأن الإسلام يمحو كل ما سبق، فيقول له :«الحمد لله الذى هداك للإسلام إن الإسلام يجب ما كان قبله»[2]، وتحولت رؤية ابن الزبعرى الشعرية، بعدما تحولت عقيدته الدينية، فيعتذر للرسول ﷺ عن كل ما اقترفه من آثام فى الجاهلية.

ويقرع سن الندم على الغوايات والضلالات التى كان يمرح فيها ويعترف بالروح القبلية التى أذكت عنده نار التعصب ضد الإسلام

(١) المغازى للواقدى جـ ٣ ص ٨٤٧ : ٨٤٨.
(٢) المصدر السابق .

والمسلمين، فيلقى باللوم على قبيلتى (سهم ومخزوم) ، يقول ابن الزبعرى [1] .

إنى لمعتذر إليك من الذى ... أسديت إذ أنا فى الضلال أهيم
أيام تأمرنى بأغوى خطة ... سهم ، وتأمرنى بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودنى ... أمر الغواة، وأمرهم مشؤوم
فاليوم آمن بالنبى محمد ... قلبى، ومخطئ هذه محروم
والله يشهد أن أحمد مصطفى ... مستقبل فى الصالحين كريم
قرم علا بنيانه من هاشم ... فرع تمكن فى الذرى فأروم

وكلمة (محروم) التى وردت آخر لفظة فى النص توحى بحقيقة الدين الإسلامى عند الشاعر، إذ يرى أن الخير كله فى الإسلام.

ولم تتوقف أشعار ابن الزبعرى - بعد إسلامه - عند هذا الحد، فقال أبياتا أخرى كلها اعتذار للرسول ﷺ وندم وتوبة على ما بدر منه أيام شركه وعناده ولقد بلغ مجموع أشعاره التى بلغ قالها بعد إسلامه - تسعة حسب ما أورده الدكتور يحى الجبورى الذى قام بجمع أشعاره منهم تلك الأبيات السابقة، أما الثانية فقد ورد ذكرها على النحو التالى [2]:

(١) الاستيعاب: جـ ٢ ص ٩٠٢ .
(٢) عبد الله بن الزبعرى : حياته وشعره ص٣٤.

سرت الهموم بمنزل السهم إذ كن بين الجلد والعظم
ندما على ما كان من زلل إذ كنت فى فتن من الإثم
حيران يعمه فى ضلالته مستورد الشرائع الكلم
عمه يزينه بنو جمح وتوازرت فيه بنوسهم

أما المقطوعة الثالثة التى قالها ابن الزبعرى بعد إسلامه فيعتذر فيها للرسول ﷺ ويقول[1] :

يارسول المليك إن لسانى راتق ما فتقت إذا أنا بور
إذا أبارى الشيطان فى سنن الغـ ـى ومن مال ميلة مثبور
آمن اللحم والعظام لربى ثم قلبى الشهيد أنت النذير
أذهب الله ضلة الجهل عنا وأحانا الرخاء والميسور

فالأبيات كلها تصور اعتذارياته للرسول ﷺ ، وندمه على ما بدر منه فى موقفه المعنت ضد الإسلام والمسلمين، وتشيع من الصور كلها روح الذلة والخضوع، وتسيطر عليها استكانه وهدوء مما جعل المعانى تتسلل فى رقة وبساطة إلى الوجدان.

وصدق الله ـ تعالى ـ إذ يقول :﴿إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾[2].

---

(١) عبد الله بن الزبعرى : حياته وشعره صـ ٣٤.
(٢) سورة القصص : آية ٥٦.

المبحث الثانى

القيم الفنية

اللغة الأدبية ذات مقومات وصفات خاصة، فهى تحمل من عبق الفن، وروح الأديب سمة التميز والتفرد، وتكمن أهمية هذه اللغة فى أنها مستقاة من المعجم العادى الذى تتكون منه اللغة العادية.

ولكنها تكتسب صفة الأدب بسبب الفنان، لأنه يمنحها قدرات شعورية خاصة، ويبث فى أصولها مادة سحرية تحولها إلى كائنات حية.

والأسلوب يكتسب قوته وبريقه وسطوته من الرواء الذى يجرى فى أوصاله، بسبب تآلفه من الألفاظ اللغوية التى توافرت لها الخصائص الأدبية.

ويتألق الأسلوب وتحلق اللغة من خلال طريقة نظم هذه الألفاظ ووضع كل لفظة، وفق ما يناسبها، ويناسب التعبير الشعرى، والحالة النفسية للشاعر، شريطة أن يجرى ذلك كله على القياس، فإن الأسلوب أو النظم كما يطلق عليه عبد القاهر الجرجانى هو(توخى معانى النحو فيما بين الكلم)[1].

وكانت الألفاظ والأساليب فى تجربة ابن الزبعرى خصائص ومميزات.

أولاً: الألفاظ:

تأخذ الألفاظ عند الشاعر بعداً أدبيا وفنيا، وهذه السمة توفرت فى

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٢٨ عبد القاهر الجرجانى، تعليق محمد رشيد رضا ط ٦- ١٩٦٠ م مطبعة محمد على صبيح.

أغلب نماذجه الشعرية قبل الإسلام، كما أنها ميزة اتسم بها الشعر الجاهلى فى(الطابع الغالب على هذا الشعر وهو طابع اللغة الأدبية العامة، ومن ناحية أخرى : فإن اللغة الأدبية لهذا الشعر لغة راقية وعالية)[1] بالإضافة إلى أنها بسيطة وسهلة عند ابن الزبعرى.

ويتضح ذلك فى أشعاره المتعددة التى عبر بها عن نفسه وعن قبيلته تأمل قوله، وهو يمدح الغض بن وائل فى هذين البيتين اللذين لم يثبتهما إلا أسامة بن منقذ فى « المنازل والديار»، يقول ابن الزبعرى[2]:

وأصبحت المنازل وهى قفر مخلاة عليهن القتام

كأن الناس بعدك نظم سلك تقطع لايقوم له نظام

فالألفاظ تتمتع بالسهولة والبساطة، وتجمع بين الجزالة والفخامة والتصويرة، وتوافقت مع المعنى الذى يراد التعبير عنه فهى تحمل مسحة حزن وأسى لفقد المرثى، ويخيل للمتأمل أن الألفاظ تعبر عن لغة الحياة المعاصرة، وهذا ما أضاف إليها التميز والتفرد.

لأن اللغة الشعرية تتميز (بأنها غالبا ما تكتسب صفة الكلام من حيث أنها تعتبر عملا فرديا يعتمد على الخلق والإبداع، ويرتكز على أساسى التقاليد الشعرية الراسخة، ولغة الحياة المعاصرة)[3].

---

(١) الشعر الجاهلى بين الرواية والتدوين ص ٢١٧ د/ على الخطيب ـ مكتبة الأمانة ط١ ـ ١٩٩٠.

(٢) المنازل والديار ص ٨ لأسامة بن منقذ. تحقيق الأستاذ / مصطفى حجازى . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٨م.

(٣) الأدب الجاهلى فى آثار الدارسين، قديما وحديثا ص ٢٠٠ د. عفيف عبد الرحمن دار الفكر للنشر والتوزيع. عمان ط١ ١٩٨٧م.

وهذا المزج الدقيق بين اللغة الشعرية ولغة الحياة العادية خاصية امتازت بها قريش عامة والشعراء القرشيون خاصة، بسبب (الاحتكاك اللغوى بسواهم من قبائل العرب... كما كانت الأسواق والأندية المحيطة بمكة ملتقى الشعراء والخطباء والوعاظ على نحو جعل لها أهمية اجتماعية وأدبية كبرى، ولهذا عائده اللغوى الكبير)[1]، كما كشف هذا المزج عن قدرة فنية عالية للشاعر، لأنه نجح فى أن يتمثل خصائص اللغتين الشعرية والعادية، ومن مجموعهما بزغت هذه اللغة الرائقة.

وفى قصائده التى صاغها بعد الإسلام، لم يتخلص ابن الزبعرى من هذه الخصائص اللغوية، بل أضاف إليها روح الوضع الجديد واكتسبت اللغة من هذا الوضع ليونته وسماحته ورقته، ونفث فيها طاقات وجدانية روحية عميقة، كما فى هذا النص الذى يمدح فيه الرسول ﷺ، ويعتذر إليه، يقول الشاعر[2]:

والله يشهد أن أحمد مصطفى مستقبل فى الصالحين كريم

قرم علا بنيانه من هاشم فرع تمكن فى الذرى وأروم

فالنص يجمع بين اللغتين، اللغة الجديدة التى اكتسبها من الإسلام مثل (يشهد ـ أحمد ـ مصطفى ـ الصالحين) كما يجمع بين اللغة القديمة مثل (قرم ـ الذرى ـ أروم).

وهذا التجاور لم يكن عامل قلق، بل كان عامل انسجام وتآلف

---

(١) الشعر الجاهلى ص ٤٨ د. صلاح رزق مكتبة الأوبرا. ط٣ ١٩٩٥م.

(٢) الاستيعاب جـ٣ ص٩٠٢.

وتوحدت اللغتان، وأفرزت هذا البنيان اللغوى والمتأنق، الذى يجمع بين الفصاحة والبساطة.

وهكذا اشتملت اللغة عند ابن الزبعرى على خصائص ومميزات اكتسبتها من المراحل المختلفة التى عاشها الشاعر.

ثانيا: الأسلوب:

يعرف النقاد الأسلوب بأنه: (طريقة الأداء أو طريقة التعبير التى يسلكها الأديب لتصوير ما فى نفسه أو لنقله إلى سواه بهذه العبارت اللغوية) وشرطوا للأسلوب شروطا هى (الصحة والوضوح والدقة) ويدل الأسلوب على ذاتية المبدع، فمن خلال الأسلوب القوى، كانت المعانى قوية وتأكيد نبوغ الشاعر وتفوقه (فالعمل الإبداعى تعبير عن العالم الداخلى للفنان، وفهمنا للنص الأدبى يعتمد ـ قبل كل شىء ـ على فهم المبدع أولا)، فالعلاقة بين العمل ومنشئه علاقة قوية مترابطة. واحتوى الأسلوب عند ابن الزبعرى على أشكال متعددة، منها:

أ ـ الشكل القصصى: وهو أسلوب يوظفه الشاعر ليخلع على المعنى روح الدراما، بالإضافة إلى أنه يمكن الشاعر من سكب أكبر قدر من مشاعره فى أقل الألفاظ.

وأخذ هذا الشكل نوعين:

---

(١) الأسلوب ص ٣٧ أحمد الشايب ـ المطبعة الفاروقية ـ الإسكندرية ـ ١٩٣٩.

(٢) النقد الأدبى الحديث ص ١١٥ د/ محمد غنيمى هلال ـ نهضة مصر ـ ١٩٧٧.

(٣) البلاغة والأسلوبية ص ٦٠ د/ محمد عبد المطلب ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤م.

القصـة القصـيرة: وورد ذلك فى بيت واحد، ويحكى فـيه قصـته مع بجير بن ذى الرمحين، ويوضح مكانته منه، يقول ابن الزبعرى[1]:

بجير بن ذى الرمحين قرب مجلس وراح علينا فضلـه غير عاتم

فالعناصر القصصية من الشخصيات والحدث والزمان والمكان توافرت فى البيت وجعلت منه قصة متكاملة الأركان عبرت عن الحدث المتمثل فى العلاقة بين «الشعر» وبين« الممدوح» وصورت الشخصيات، وأشارت إلى الزمان والمكان.

هذا الأسلوب له أهمية بلاغية كبرى «إذ أن زواج الدراما بالشعر أشد تكافؤا وأكثر عونا على تحقق جوهر كل منهما فى وحدة تبرز خواصهما الوظيفية» [2]وتجعل الرؤية الشعرية غنية وموحية وخصبة الدلالات.

أما القصة الطويلة: فعبرت عنده عن المواقف المختلفة التى كانت تحتاج إلى بسط فى التعبير.

وفيه يستخدم الشاعر الأساليب السردية والروائية، فيحكى ويصف، ويتناول بعض الأشياء الصغيرة التى تضيف إلى المعنى العام قوة وحبكة.

وورد هذا الأسلوب فى إحدى قصائده التى يعتذر فيها للرسول ﷺ والتى يقول فيها [3]:

---

(١) أسد الغابة جـ ٣ ص ٢٣٢ لعز الدين بن الأثير تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا مع آخرين . كتاب الشعب د. ت.

(٢) إنتاج الدلالة الأدبية ص ٤١ د. صلاح فضل . مؤسسة مختار للنشر والتوزيع ط ١ ١٩٨٧م.

(٣) الاستيعاب جـ ٣ ص ٩٠٢.

مع الرقاد بلابل وهموم والليل معتلج الرواق بهيم
مما أتانى أن أحمد لامنى فيه فبت كأننى محموم
إنى لمعتذر إليك من الذى أسديت إذا أنا فى الضلال أهيم
أيام تأمرنى بأغوى خطه سهم وتأمرنى بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودنى أمر الغواة وأمرهم مشؤوم

فالشاعر يصور ـ من خلال الأسلوب القصصى ـ حكايته مع الإسلام، ويعتمد على ما يوفر، هذا الأسلوب من عناصر حكائية وسردية، فيسرد الأحداث التى سبقت إسلامه، وشعوره الداخلى« قبل الإسلام وبعده».

وتكشف الأبيات عن تمتع ابن الزبعرى بنفس قصصى طويل يخوض من خلاله وقائع وتجارب متعددة، فيحكى الهموم التى أرقته وأصابته بما يشبه الحمى، وذلك لأن الرسول ﷺ قد توعده فصار وعد الرسول بالنسبة له همّا يؤرقه.

وفى اعتذاره للرسول ﷺ يشير إلى الأسباب التى حالت بينه وبين دخوله الإسلام، فيذكر أن تعصبه لقريش، وتحريض سهم ومخزوم كانا من أهم العوامل التى أخرت إسلامه.

لقد ساهم هذا الإسلوب فى الكشف عن العوامل المختلفة التى كانت تجول فى خاطر الشاعر، بشكل مؤثر وقوى إذ يجب « أن يتجه إلى الحديث مباشرة وأن نعبر عنه فى لغة مركزة، وعبارة محكمة لا تحتمل الاستطراد أو التزيد ويحقق القصاص هدفه عن طريق المزاوجة بين التكثيف والبساطة).[1] وإفادة الشعر من التكنيك القصصى أمر

(١) القصة القصيرة: دراسة ومختارات ص ٨٤، د/ الطاهر أحمد مكى دار المعارف ط ٣ ـ ١٩٨٣م.

وارد، لأنه يساعد على فتح مجالات جديدة أمام الشعر والشاعر.

ويقع بجانب الأسلوب القصصى ـ فى النص السابق ـ عدة تركيبات لغوية عززت الشعور بإخلاص ابن الزبعرى فى إسلامه منها الجمل الموجزة، التى صورت الشعور الداخلى والخارجى كما هو الأمر فى البيت الأول، إذ عبر من خلال الشطرة الأولى عن شعوره الداخلى، وفى الشطرة الثانية عبر عن الخوف الذى يسيطر عليه فأشار إلى الليل وشدة ظلمته، وكلها عناصر طبيعية تقوم بما يسمى (المعادل الموضوعى) وهو أسلوب إيحائى يلجأ إليه الشاعر ليرمز من خلاله إلى أمور معنوية يحسها الشاعر، وهذا الأسلوب غرض فنى وأسلوبى ألصق بالشعر منه بأى شىء آخر.

كما تؤكد جملة (إنى لمعتذر إليك) حسن إسلامه، ورغبته المخلصة فى التنصل من الغوايات السابقة، فلقد أكد هذا المعنى بـ (إن وضمير المتكلم واللام) وكلها أساليب توضح صدق موقفه.

وهذه الأساليب تؤكد أن شعر عبد الله بن الزبعرى لم يختلف بعد إسلامه وإنما قد تكون طريقة التعبير قد تغيرت عنده، فلا مجال لأن يوصف هذا التغير بـ (ضعف) الأسلوب التى وسم بها النقاد كل الشعراء الذين أسلموا.

وأحرى أن يدرس الأسلوب متزامنا مع الواقع أو الوضع الجديد ويجب أن يضع الدارس فى اعتباره، أن الأسلوب هو صورة الشخص لأنه يمنح من مقومات نفسية وذهنية، ويعكس الحالة التى يعيشها.

فإذا كان أسلوب عبد الله بن الزبعرى قبل الإسلام، يغاير ما بعد الإسلام فهذا شيء يتوافق مع العملية الفنية للإبداع، لأن بيئته الشعرية فى الجاهلية تختلف عن بيئته الشعرية فى الإسلام وعناصر الإلهام هنا تختلف عن عناصر الإلهام هناك.

ففى الإسلام القرآن وحديث الرسول ﷺ فضلا عن الروح الإسلامية التى يصدر عنها، وهى روح تغير بالطبع روح الجاهلية.

كما حفل الأسلوب ـ عند الشاعر ـ بما يحفل به الشعر الغنائى من إحكام، وقوة تعبير، بسبب تعدد الأساليب وتباينها ما بين خبر وإنشاء، وتقديم وتأخير.

وتترد فى أشعاره كثير من الشخصيات، وهو أسلوب ينبع من الخصائص الفنية التى ينطلق منها شعر الشاعر.

وهذه الشخصيات لها دلالتها الرمزية، وعمقها الإيحائى فى إطار التجربة الشعرية كلها.

فعندما يتحدث عما أصاب المسلمين فى أحد من هزيمة وقتل لبعض الصحابة الذين كان لهم شأن وخطر، وكانت لهم منزلة خاصة فى قلب النبى ﷺ والصحابة، يذكر الأسماء بعينها، لأن ذكرها أبلغ من أى وصف لما حدث.

وذكر الشاعر هذه الأسماء ليريح جوانحه التى تغلى بسبب حنقه عليها، وغيظه منها، فهو يعددهم اسما اسما، فيقول[1]:

---

(١) السيرة النبوية جـ٣ صـ ٩١.

قتلنا ابن جحش فاغتبطنا بقتلـــه وحمزة فى فرسانه وابن قــوفل[1]

وأفلتنا منهـم رجال فأسرعـــوا فليتهـم عـاجـوا، ولم نتعـجـــل

أقاموا لـنا حـتى تعـض سيوفنـــا سـراتـهـم وكـــلنـا غـــير عـزل[2]

وحتى يكون القتـــل فينا وفيـهـــم ويلقوا صبوحا شرها غير منجلى[3]

فأسماء (ابن جحش وحمزة وابن قوفل) تثير فى نفس الشاعر مشاعر مختلفة، لأنهم كانوا سببا فى هزيمة قريش، وقتل فلذات أكبادها.

وفى هذا اليوم(يوم أحـد) نجح الكفار فى قـتلهم، فهو شـعور يملؤه الفخـر والزهو، وتختلط فـيه مشـاعر الحقـد والكره مع مشاعـر الرضا والغبطة والسرور.

وتكشف الأسـاليب عن حسـرة الكفار وغـيظهم لأنهم لم ينالوا من المسلمـين ما يشـفى غلتهم، فجـاءت الأساليب تغلب عليـها الصيـغة الخبرية لتحكى وتصف ما تم ودار على أرض القتال، وتشف عن الغيظ المضطرم فى صدر الشاعر بسبب عدم ظفره بالمسلمين.

وضحت رغبة الشاعر فى الانتقام، واستهانته بكل شىء حتى تتحقق له هذه الغاية فى قوله (وحتى يكون القتل فينا وفـيهم) حيث قدم ضمير

---

(١) ابن جحش: هو عبد الله بن جحش من بنى أسد بن خزيمة، كان حليفا لبنى أمية.
حمزة: هو حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ قتله وحشى غلام جبير بن مطعم.
ابن قوفل: هو الأعرج بن مالك بن ثعلبة بن أصرم بن فـهر بن ثعلبة من شهداء أحد.
راجع السيرة النبوية جـ٣ صـ ٥٩ وجمـهرة أنساب العرب صـ ٣٥٤ دار المعارف ط ٣ ـ ١٩٧١.

(٢) سراتهم: ساداتهم وأشرافهم.

(٣) الصبوح: شرب الغداة.

المتكلم(فينا) على ضمير الغيبة(فيهم) ويدل هذا التقديم على حرص الكفار على النيل من المسلمين.

وتتحقق فى أساليب الشاعر وحدة تربط بين التراكيب من خلال البدل والنعت، وهى خاصية وسمت شعره بالتآلف والترابط وهذه الخصائص الأسلوبية وقعت بعد أن توفرت فى قصائده وحدة المعنى والحدث، كما فى هذا النص، الذى يصور فيه همومه ولواعجه.

يقول الشاعر[1]:

سرت الهموم بمنزل السهم ... إذ كن بين الجلد والعظم

ندما على ما كان من زلل ... إذا كنت فى فنن من الإثم

حيران يعمه فى ضلالته ... مستوردا لشرائع الظلم

عمه يزينه بنو جمح ... وتوازرت فيه بنو سهم

فالأبيات تصور الهموم التى كان الشاعر يعانيها قبل الإسلام وتناولت الأبيات المعنى بشكل عضوى مترابط وأوضح النقاد أنه (ينبغى للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائم بينها، لتنتظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فضلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه، فينسى السامع المعنى الذى يسوق إليه)[2].

والأبيات السابقة تميزت بعدة خصائص مثل: احتمال اللفظ لأكثر

---

(١) الاستيعاب جـ٣ صـ ٩٠٢.

(٢) عيار الشعر صـ ٢٠٩ لابن طباطبا. تحقيق د/ عبد العزيز بن ناصر المانع. دار العلوم للطباعة والنشر ـ الرياض ـ ١٩٨٥م.

من معنى ، كما هو الشأن فى قوله(بمنزلة السهم) فقد يكون المقصود هو الشاعر نسبة إلى قبيلته.

وقد يكون المقصود (القلب)، وهو كناية عن الهموم التى تلفه والتى صارت من الدقة والخفاء بحيث لم يتبينها الشاعر، وسكنت عنده بين الجلد والعظم.

ودبيب الهموم يكشف عن قدرة تصويرية بارعة، حيث جعلها الشاعر ـ وهى شىء معنوى ـ مجسمة لها دبيب يشبه دبيب الكائن الحى.

وتعبيره (بين الجلد والعظم) كناية عن الألم الذى يحسه الشاعر.

ويلاحظ على الأساليب كلها الصيغة الخبرية، وخلوها من الأساليب الإنشائية وهذا الملمح يتعلق بالغرض الذى يحاول الشاعر تصويره لأنه يحكى قصته وصراع الرغبات بين الكفر والإسلام.

وهناك بعض الأساليب التى كان ظاهرها الخبر، وباطنها الإنشاء لأنها لا تحكى الموقف، بل حملت معنى الطلب مثل قوله (ندما على ما كان من زلل) فهو يقصد التطهر، والدعاء بالاستغفار.

ودل الحذف الذى وقع فى البيت الثالث والرابع على الاهتمام بالتوبة والاعتذار، وبيان السبب فى معاداته للرسول ﷺ وجاء الحذف فى (حيران يعمه) والتقدير أنا حيران وفى قوله (عمه يزينه بنو جمح) والتقدير هو عمه، فدل الحذف على الصفة دون الالتفات للموصوف.

وجاء الجناس بين: (يعمه) و(عمه) ليربط النص على صعيد المعنى

كما يربطه أيضا على صعيد الصياغة، مما وسم المعنى بالتوحيد والارتباط.

ويتضح من دراسة الأسلوب عند الشاعر ما يلى:

أولا: القوة ومتانة التراكيب، والبعد عن الأساليب المهلهلة الضعيفة.

ثانيا: تغلبت الأساليب الخبرية على الأساليب الإنشائية، وهذه الخاصية ترتبط بمضمون التجربة عنده، فهى تدور حول الحكاية والأخبار والدفاع عن العصبية القبلية.

ثالثا: حفل الأسلوب عنده بعناصر قصصية وروائية.

* * *

الخاتمة

من النقاد من يرى أن هناك أشعارا لا تبلى مع دورة الأيام والليالى، وعرفوا هذه الأشعار بأنها هى التى تتخطى حاجز الزمان والمكان، وتخاطب الفرد الذى يعيش فى عمق الزمن وليس الفرد الذى يحد بحدود الميلاد والموت.

ومن هؤلاء الشعراء عبد الله بن الزبعثرى الذى ذهب، وبقى شعره الذى يعبر عن موقف إنسانى يطمح إلى الاعتزاز بالذات، ويصور الشجاعة فى الرأى.

وما كان لجج الشاعر فى الخصومة مع الدعوة الإسلامية لم تكن تحركها إلا الدوافع النفسية التى رأت فى هذا الدين الجديد عامل هدم وتقويض لكيان قريش كلها، وينسحب ذلك بالتالى على الشاعر، لقد نافح الشاعر عن قريش من منطلق ذاتى أولا، وقبلى ثانيا، وكان إسلام الشاعر بعد ذلك تعزيزا لمكانته الأدبية وفق أجواء جديدة تغاير الأجواء السابقة التى كان يهيم فى ضلالها.

ولقد جاءت القيم الفنية فى شعر عبد الله بن الزبعرى متوائمة مع المعطيات النفسية والشعورية التى كان يصدر عنها ، فألفاظه وأساليبه وصوره تكاد تنتقل من النقيض إلى النقيض بعد أن أسلم، وأشرب قلبه ووجدانه روح الإيمان، فخلع الرقة والعذوبة، والميل إلى التراكيب البسيطة السهلة.

إن النص القرآنى الذى يقول:﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾ يعبر أصدق تعبير عن موقف ابن الزبعرى من الدعوة الإسلامية.

أرجو من الله ـ عز وجل ـ أن أكون قد كشفت عن هذا الموقف، والحمد لله أولا وأخيراً.

د/ محمد السيد سلامة

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ـ الأدب الجاهلى فى آثار الدارسين، قديما وحديثا د/ عفيفى عبد الرحمن. دار الفكر للنشر والتوزيع . عمان ط ١ ـ ١٩٨٧م.

٣ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة: محمد بن الجزرى بن الأثير، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور، محمود عبد الوهاب فايد.

٤ـ الأسلوب: أحمد الشايب ـ المطبعة الفاروقية ـ الإسكندرية ـ ١٩٣٩م.

٥ ـ الأعلام: خير الدين الزركلى، ط٣، دار العلم للملايين.

٦ـ إنتاج الدلالة الأدبية: د/ صلاح فضل. مؤسسة مختار للنشر والتوزيع طـ ـ ١٩٨٧م.

٧ـ أنساب الأشراف : أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذرى، تحقيق: الدكتور/ محمد حميد الله، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، بالاشتراك مع دار المعارف/ ١٩٥٩م .

٨ ـ البلاغة والأسلوب، د. محمد عبد المطلب ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤م.

٩ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٠م.

١٠ـ تهذيب الأسماء واللغات، محى الدين بن شرف النووى. دار الكتب العلمية، بيروت .

١١ ـ جمهرة أنساب العرب ـ دار المعارف ط ٣ ـ ١٩٧١.

١٢ـ دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجانى ـ تعليق محمدرشيق رضا، ط. ٦، ١٩٦٠م. مطبعة محمد على صبيح.

١٣ ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ، تحقيق: محمد على البجاوى ط ٣، دار الجيل بيروت، ١٩٩٣م .

١٤ـ السيرة النبوية : أبو محمد عبد الملك بن هشام ، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط ٣، مكتبة الكليات الأزهرية/ ١٩٧٨م.

١٥ـ الشعر الجاهلى بين الرواية والتدوين د/ على الخطيب ـ مكتبة الأمانة ط ١ ـ ١٩٩٠م .

١٦ـ الشعر الجاهلى د. صلاح رزق ، مكتبة الأوبرا ـ ط ٣ ـ ١٩٩٥م.

١٧ـ طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحى ، قرأه وشرحه: محمود شاكر، مطبعة المدنى / ١٩٧٤م.

١٨ـ عبد الله بن الزبعرى، حياته وشعره: د/ يحيى الجبورى، مجلة معهد المخطوطات .

١٩ـ عيار الشعر ـ ابن طباطبا العلوى تحقيق د/ عبد العزيز بن ناصر المانع ـ دار العلوم للطباعة والنشر ـ الرياض ـ ١٩٨٥م.

٢٠ ـ غرائب الفرقان ورغائب الفرقان : نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى، دار الجيل ، بيروت ، (د ت) .

٢١ـ القاموس الإسلامى : أحمد عطية الله ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م.

٢٢ـ القصة القصيرة : دراسة ومختارات د/ الطاهر أحمد مكى ـ دار المعارف ط ـ ٣ ـ ١٩٨٣م.
٢٣ـ الكامل فى التاريخ : محمد بن الجزرى بن الأثير ، دار صادر : بيروت
٢٤ـ الكشاف: جاد الله محمود بن عمر الزمخشرى، ط ٢، المطبعة الأميرية.
٢٥ـ لسان العرب :ابن منظور . دار المعارف / ١٩٧٧م
٢٦ـ المؤتلف والمختلف : الحسن بن بشر الآمدى ،تعليق: الدكتور كرنكو ، ط ١، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د ت.
٢٧ـ معجم الشعراء فى لسان العرب د/ ياسين الأيوبى ط ٢ دار العلم للملايين ، بيروت / ١٩٨٢م.
٢٨ ـ معجم الشعراء المخضرمين والأمويين: د/ عزيزة، فوال بابتى، ط١، دار صادر بيروت/ ١٩٩٨م.
٢٩ ـ المغازى: محمد بن عمر الواقدى، تحقيق: مارسدن جونس، مطبعة جامعة أوكسفورد.
٣٠ـ المنازل والديار : أسامة بن منقد ـ تحقيق الأستاذ/ مصطفى حجازى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ ١٩٩٨م.
٣١ ـ المنمق فى أخبار قريش: محمد بن حبيب البغدادى، صححه وعلق عليه: خورشيد أحمد فاروق، ط١، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٥م
٣٢ ـ نسب قريش: المصعب بن عبد الله المصعب الزبيرى، تصحيح ليفى، بروفنسال، ط٣ دار المعارف ١٩٧١م.
٣٣ ـ النقد الأدبى الحديث د. محمد غنيمى هلال ـ نهضة مصر ـ ١٩٧٧م.

* * *

محتويات العدد

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة العدد	٣
للأستاذ الدكتور / محمود السيد شيخون ـ عميد الكلية	٥
إيضـــاح	٧
هيئة تحرير الحولية	٩
أولاً : قسم الشريعة	١١
١ ـ الأقوال الأصولية لأبى الحسن التميمى البغدادى	١٣
الدكتور/ أحمد بن محمد العنقرى	
٢ ـ شرح باب القرض وباب الحوالة والضمان وباب الرهن	١٤٣
الدكتور/ عبد الكريم بن يوسف الخضر	
٣ ـ العلاقـــة الزوجيـــة	١٨٥
الدكتور/ سعود عبد الله الروقى	
٤ ـ اللقيط وأحكامه بين الشريعة والقانون	٢٨٩
الدكتور/ عبد الجواد خلف محمد	
٥ ـ المعاملة الإسلامية بديل عن المعاملات الربويّة	٣٧٧
الدكتور/ عباس عبد اللاه شومان	

الموضـوع	الصفحة
ثانيًا : قسم اللغة العربية :	٤٢٧
١ ـ أنغام شعرية فى رحاب كلية الدراسات الإسلامية عرض وتقديم الدكتور/ محمد محمد خميس	٤٢٩
٢ ـ الجهود النحوية لابن طاهر النحوى الدكتور / محمد الزين زروق	٤٤١
٣ ـ دراسة المسائل النحوية فى كتاب الزاهر لابن الأنبارى الدكتور/ محمد حسن عثمان	٤٩١
٤ ـ المجاز اللغوى عند المبرد فى كتابه الكامل الدكتور / مصطفى السيد مصطفى جبر	٥٨٧
٥ ـ موقف عبد الله بن الزبعرى من الدعوة الإسلامية الدكتور/ محمد السيد سلامة	٦٨٣

والحمد لله رب العالمين

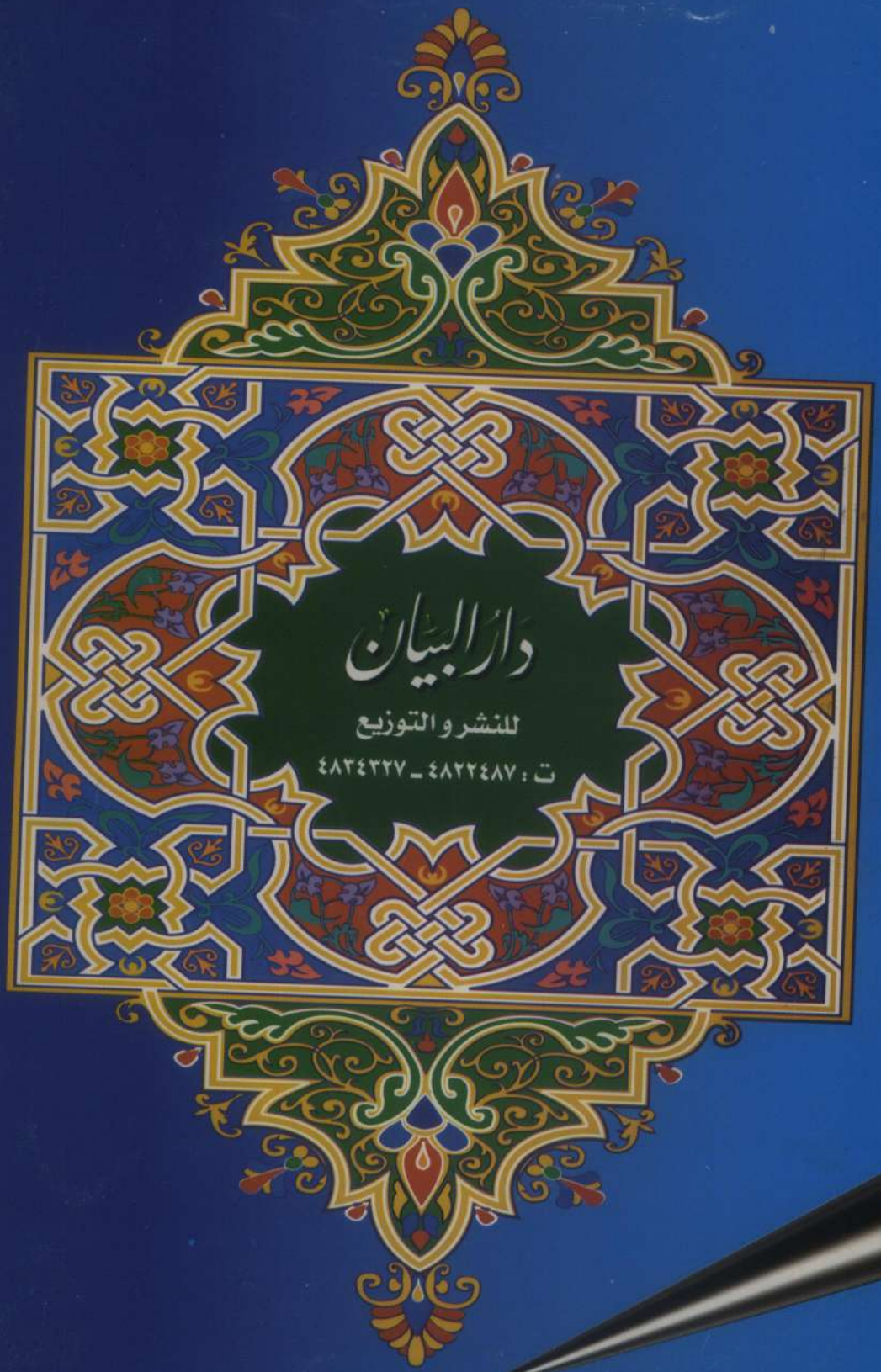
دار البيان
للنشر والتوزيع
ت : ٤٨٢٢٤٨٧ - ٤٨٣٤٣٢٧